٨ـ الاسلام والفنون الجميلة

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

ترى كيف أثرت هذه النظم الإسلامية الثلاثة ـ النقابات والحسبة والوقف ـ فى الفنون الجميلة ؟

أما نظام الوقف فنحن ندين له كما ذكرنا بمعظم ما وصل إلينا من روائع التحف والآثار الإسلامية ، ويكفى أن نضيف إلى ما تقدم أن كثيراً من تحف دار الآثار العربية كانت موقوفة على المساجد . فهذا النظام ضمن استمرار نشاط المهندسين والصناع والفنانين ، كما ضمن أيضاً اطراد حركة التطور فى الفنون المختلفة لا سيما تلك التى تتصل بالمساجد من بناء وصناعة وزخرف . فلولا تلك الأموال التى وقفت على العناية بالمنشآت الإسلامية المختلفة لضاع هذا التراث الفنى العظيم . على أن لنظام الوقف فضلا آخر لا يصح إنكاره ، هو تلك الوقفيات التى حبست فيها الأعيان المختلفة فقد تضمنت وصفاً دقيقاً لهذه الأشياء يجد فيه اللغويون والمشتغلون بالآثار الإسلامية معيناً لا ينضب من الاصطلاحات الفنية التى تنير لهم سبل الدراسة

أقدم الكتابات والزخارف فى الجامع الأزهر
من كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك لمحمد عبد العزيز مرزوق

وأما نظاما الحسبة والنقابات فينحصر أثرهما فى تحسين المنتجات الصناعية والعمل على رفع مستواها ، والعناية بإخراجها فى أحسن صورة ممكنة . ففى ظل النقابات وبإشراف « المحتسب » خطت الصناعات الإسلامية خطوات واسعة فى سبيل الرقى ، حتى بلغت الغاية القصوى ، وعندئذ سمت عن دائرة الصنعة المألوفة إلى مستوى الفن الجميل . ولكى يكون هذا التطور واضحاً نضرب له مثلاً بالآنية التى تصنع لتمسك الطعام أو الشراب فهى تظل وسيلة تستخدم فى هذا الأمر ما لم يفتن الإنسان فى صنعها وزخرفتها ، ويبذل الوسع فى تجميلها وتنسيق ألوانها ؛ فإذا ما وصلت إلى الكمال فى ذلك أو قاربته غادرت موائد الطعام لتتصدر قاعات الاستقبال متخذة مكانها بين التحف الجميلة . وعندئذ تتغير نظرتنا إليها فننسى وظيفتها الأولى ولا نذكر عنها إلا أنها شىء جميل يمنحنا التأمل فى محاسنه لذة لا تعدلها لذة .

* * *

رأينا إذن كيف أن الإسلام وقف من الفنون الجميلة موقفاً يختلف عن مواقف الأديان السابقة عليه ، فهو لم يستخدمها فى دعوته كما فعلت الوثنية والمسيحية ، ولم ينكرها كما أنكرتها اليهودية ؛ ولكنه أثر فيها ببعض توجيهاته ونظمه . لقد وقف

عليهما ، هى وفارسها ، التبعة فى موت زوجها . وأن أحسن ما تكفر به عن ذنبها هو البعد عمن تحب . فاعتزلت الناس وعاشت وحدها ـ الحب فى قلبها يهيج ويشتد ، وهى تصبر وتتألم لا تستطيع أن تفرح القلب بالوصال . ثم تموت الأميرة حزينة ، تحلم بالحب ، وتقى للزوج

تلك هى قصة الأميرة دكليف تدور حول حب عنيف يبعثه الإعجاب بالفروسية والبطولة والجمال ، ووفاء شديد يقتضيه الواجب وحفظ العهد ؛ فيتغلب الوفاء على الحب ، وتقضى الأميرة بنهشها الحزن ويذيبها الحنين ، ويتحدث الناس عنها ، ويتكلمون عليها ، ولكنهم ، جميعاً ، يعجبون بها ويطرونها ، ثم يرددون وهم يبتسمون : « ما أنبلها ! لقد كانت أميرة شريفة »

(دمشق) صبوح العربى المحمد
المحامى

على طبيعة الإنسان ، وعلم ما يضطرب بين جنبيه من النزعات وما ركب فيه من الغرائز والميول فلم يحاول كبتها بإلزامه الوقوف عند حد الضروري اللازم لبقائه ، بل تركه يلبي ماتنطوي عليه نفسه من غرائز السمو دون أن يعترض سبيله أو يحد من نشاطه فهد له بذلك سبيل الوصول إلى أقصى ماقدر له من التقدم المادي . لفت نظره إلى ما يحيط به من المخلوقات ، وشحذ فيه قوة الملاحظة وهي عماد الفن الجميل ، وذكره بالحياة الدنيا وما لها عليه من الحق (ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك) وبصره بما في الوجود من زينة وحببها إليه (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) .

هذا التسامح الذي عرف عن الإسلام في كل ما يتصل بمباهج الحياة ومتعها ، ما دامت لا تتعارض مع أصوله في شيء ، وما دامت لا تخرج عن دائرة الاعتدال ، دفع بالمسلمين إلى الإقبال على الفنون الجميلة بنفس راضية مطمئنة ، وجعلهم يزاولونها بقلوب مثلوجة وأفئدة هادئة ، فأخرجوا للعالم ذلك الفن الرائع الذي فيه للفكر متعة وللنفس لذة وغبطة . ذلك الفن الذي أثر في الفنون المعروفة على عهده من شرقية ، وغربية .

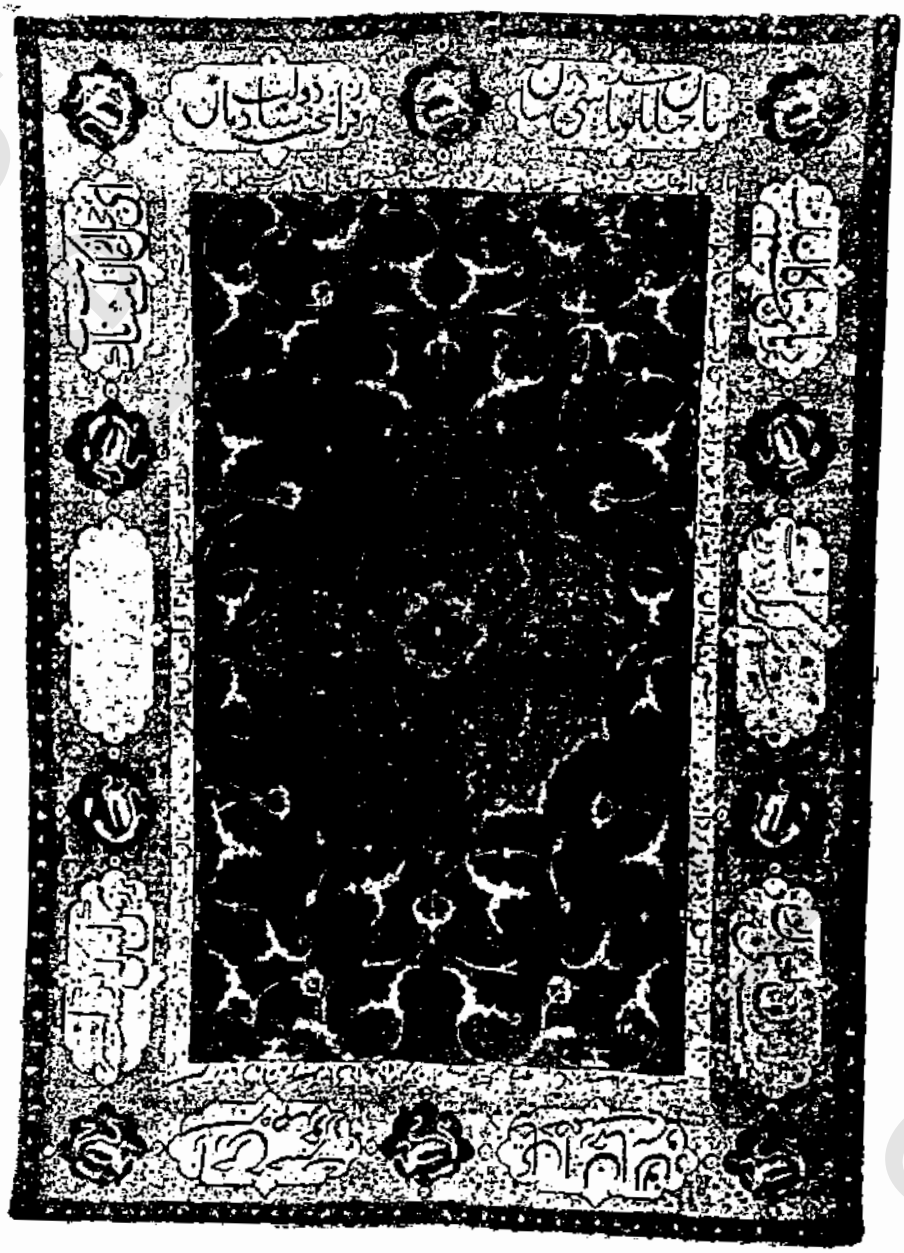

سجادة محلاة بخيوط معدنية من القرن العاشر الهجري — من مجموعة معالي علي ابراهيم باشا نقلا عن كتاب : الفنون الايرانية في العصر الاسلامي للدكتور « زكي محمد حسن »

ولقد اعترف علماء الآثار من الغربيين بما تركه الفن الإسلامي في فنون بلادهم من آثار واضحة : فالحروف العربية والزخارف الإسلامية بنباتية كانت ، أو هندسية قد لعبت جميعها في فنون أوربا دوراً هاماً . ومصنوعات المسلمين : من خزف وزجاج ، ومعادن ، وعاج ومنسوجات ، وسجاد كلها كانت مُثُلاً تحتذى في بلاد الغرب .

(انتهى)

محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية